مو اقف أعضاء حلقة العز ابة من الاحتلال الفرنسي: الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش والشيخ إبراهيم بيوض أنموذجا

The Stance of the Azzaba Circle Members Towards French Colonialism: A Case Study of Sheikh Amhammad bin Yusuf Itfayish and Sheikh Ibrahim Bayyud

محمد بوسعدة

جامعة غرداية

boussada.mohammed@univ-ghardaia.edu.dz

تاريخ الإرسال: 2026/01/15 تاريخ القبول: 2026/01/30

ملخص:

تناولت هذه الدراسة موقف جماعة العزابة من الاحتلال الفرنسي بوادي مزاب، من خلال شخصيتين بارزتين، هما: الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش والشيخ إبراهيم بيوض. فقد عارض الشيخ اطفيش منذ البداية معاهدة الحماية التي عقدها أعيان المزابيين مع الفرنسيين عام 1853، داعيًا إلى رفض الخضوع لسلطة الاحتلال الفرنسي، لكن الظروف السياسية فرضت توقيع المعاهدة كخيار وحيد لتفادي الاحتلال المباشر وتدمير المنطقة وإبادة سكانها. غير أن الفرنسيين سرعان ما خرقوا المعاهدة واحتلوا وادي مزاب سنة 1882م، فاحتج الشيخ اطفيش وطالب بتنفيذ بنود الاتفاق، موثقًا موقفه في كتاباته.

بعد وفاته، واصل الشيخ إبراهيم بيوض مسيرة النضال، فعارض قانون التجنيد الإجباري وسعى لإنهاء الحكم العسكري، وطالب بربط منطقة وادي مزاب بعمالة الجزائر. كما دافع عن اللغة العربية والدين الإسلامي، بإنشاء المدارس الحرة وإرسال البعثات العلمية إلى تونس. ومع اندلاع الثورة، دعمها بقوة، وكان صوتها البارز في الجنوب، مؤكدًا أن نضاله كان دومًا من أجل وحدة الجزائر، وهو ما تأكد في تصديه الكامل لمشروع فصل الصحراء.

الكلمات المفتاحية: تاريخ واد مزاب، امحمد بن يوسف اطفيش، الشيخ بيوض إبراهيم، احتلال مزاب، تاريخ غرداية.

Abstract (in English):

This study examines the stance of the Azzaba Council (al-’Azzaba) regarding the French occupation of the M’zab Valley, focusing on two prominent figures: Sheikh Amhammad bin Yusuf Itfayish and Sheikh Ibrahim Bayyud.

From the outset, Sheikh Itfayish opposed the Protectorate Treaty concluded between the Mozabite notables and the French in 1853, calling for a total rejection of French colonial authority. However, the prevailing political circumstances compelled the signing of the treaty as the sole alternative to direct military occupation, the potential destruction of the region, and the annihilation of its inhabitants. The French soon breached the agreement by formally annexing the M’zab Valley in 1882, prompting Sheikh Itfayish to protest and demand the fulfillment of the treaty’s original terms—a position he documented extensively in his writings.

Following his death, Sheikh Ibrahim Bayyud carried forward the struggle. He opposed the compulsory conscription law, sought the termination of military rule, and advocated for the administrative integration of the M'zab region with the Department of Algiers (Algiers Prefecture). Furthermore, he championed the Arabic language and Islamic identity by establishing independent schools (Écoles Libres) and dispatching educational missions to Tunisia. With the outbreak of the Algerian Revolution, Bayyud emerged as its vocal proponent in the south, maintaining that his struggle was fundamentally for the territorial integrity of Algeria—a commitment solidified by his absolute rejection of the French project to detach the Sahara.

Keywords: The History of the M’zab Valley, Amhammad bin Yusuf Itfayish, Sheikh Ibrahim Bayyud, The Occupation of the M’zab, The History of Ghardaia.

مقدمة:

تمكن الفرنسيون وبعد عدة مخططات ومشاريع احتلال الجزائر سنة 1830م، ليتسنى لهم القضاء على دولة كانت محل أطماعهم منذ ما يربو عن قرن، والانتقام لشرفهم المزعوم، ونتيجة للمستوى الذي وصلت إليه القوات العثمانية في الجزائر خلال تلك الفترة، مقارنة بنظيرتها الفرنسية تمكن الفرنسيون من دحر كل المقاومات الجزائرية التي وقفت في وجهها بداية من سيدي فرج مرورا بسطاوالي ومتيجة وأحمد باي والأمير عبد القادر ونهاية بمقاومة الأهقار.

فلقد واجه الجزائريون الزحف الفرنسي في الأراضي الجزائرية بكل قوة، حيث تجلت هذه المواجهة من خلال سلسلة من المقاومات الشعبية المتعددة. وعلى الرغم من الهزائم التي تكبدها الطرف الجزائري في بعض هذه المواجهات، إلا أن ذلك لم يكن عائقًا أمام اندلاع موجات جديدة من المقاومة. لأن الفرنسيين لم يكونوا محل ترحاب لدى الجزائريين، ولم يكن وجودهم مقبولًا على الأراضي الجزائرية، مما أثار رفضًا شعبيًا واسعًا وتصاعدًا في المقاومة. ولعبت اللحمة الوطنية دورًا جوهريًا في توحيد الصفوف وتعزيز التآزر بين الجزائريين في مواجهة هذا الاحتلال.

من بين الشرائح الاجتماعية الجزائرية التي تجندت لمواجهة الاحتلال، المزابيون الذين ساندوا إخوانهم الجزائريين بداية من المحطات الأولى في المواجهة، والتي تمثلت في معركة سيدي فرج واسطاوالي عام 1830م، بمشاركة نحو أربعة آلاف مقاتل. حسبما تؤكده المصادر التاريخية المعاصرة لتلك الفترة. وقد أدّى علماؤهم دورًا محوريًا في شحذ الهمم وتوجيه الرأي العام نحو مقاومة الفرنسيين، في المجالين العسكري والسياسي على حدّ سواء، بل تجاوزوا ذلك إلى الانخراط المباشر في المعارك السياسية والثقافية في مواجهة الاحتلال الفرنسي، انطلاقًا من إيمانهم بضرورة أن يجسّدوا القدوة الاجتماعية التي يُحتذى بها، فكان من أبرز من تصدروا هذا الميدان وكانوا من أقطاب حلقة العزابة الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش والشيخ إبراهيم بيوض من بعده.

وانطلاقًا من هذا السياق التاريخي، تبرز الإشكالية المحورية التي تسعى هذه الدراسة لمعالجتها، وهي: كيف تجلّى موقف الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش والشيخ إبراهيم بيوض من الاحتلال الفرنسي، ضمن موقعهما في حلقة العزّابة؟ وتتفرع عن هذه الإشكالية جملة من التساؤلات الفرعية، من بينها: كيف كان موقف المجتمع المزابي من الاحتلال الفرنسي؟، ما هي أبرز المحطات السياسية التي برز

فيها دور الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش في مقارعته للاستعمار؟، هل واصل الشيخ بيوض مسار النضال الذي بدأه الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش؟ فيما تجلى دور الشيخ بيوض في الثورة؟

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز دور أعضاء حلقة العزابة بمنطقة وادي مزاب في التصدي للمحتل الفرنسي من خلال تسليط الضوء على مواقف شخصيتين بارزتين منها، وإبراز الجهود التي قامتا به من أجل مجابهة هذا المحتل والكشف عن مشاريعه ومخططاته الجائرة.

لقد اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج التاريخي والتحليلي في تناول دور هاتين الشخصيتين، من خلال تسليط الضوء على الأسباب والخلفيات التي دفعت بهما إلى تبني مواقف محددة تجاه الاحتلال الفرنسي، وذلك بهدف الوصول إلى استنتاجات دقيقة حول مواقفهما وأدوارهما في مواجهة هذا الاحتلال.

1. مشاركة سكان وادي مزاب في التصدي للاحتلال الفرنسي في البدايات الأولى للغزو:

شارك سكان وادي مزاب، من خلال ذويهم من التجار الناشطين في مدن التل، في مواجهة القوات الفرنسية إلى جانب إخوانهم الجزائريين في معركة سيدي فرج، ثم في معركة اسطاوالي. جاء ذلك استجابةً لنداء الداي حسين، آخر دايات الجزائر، والذي دعا جميع أبناء البلاد في مختلف المناطق إلى حمل لواء الجهاد ضد المحتل الفرنسي. فتجند نحو أربعة آلاف مقاتل من المزابيين لخوض غمار الكفاح، وفقًا لما رواه سيمون بفايفر وهو أحد شهود العيان، إذ يقول في مذكراته قائلا:"...فوصل باي قسنطينة إلى سطح الولي مع حوالي إثنى عشر ألفا، وباي تيطري مع ثمانية آلاف، وخليفته ثلاثة آلاف، وخليفة باي وهران ستة آلاف وشيوخ القبائل ما بين الستة عشر والثمانية عشر ألفا وأمين الميزابيين مع حوالي أربعة آلاف، وبذلك أصبح الجيش الجزائري، بإضافة حرس الأغا أفندي وسكان الجزائر الذين تواصلوا إلى المعسكر دفعات كبيرة، يضم خمسين ألف رجل على الأقل" (بفايفر، 2009، صفحة 77).

لم يتمكن الجزائريون من تحقيق الانتصار ودحر القوات الفرنسية، التي نجحت في التوغل نحو عمق الجغرافيا الجزائرية. وقد شكّل انهزام الجزائريين في معركة اسطاوالي وسيدي فرج، حافزًا للفرنسيين على التوسع أكثر داخل الجزائر، ورغم ضعف القوى الجزائرية في مواجهة القوات الفرنسية خلال سلسلة من المقاومات الشعبية التي اندلعت تباعًا، مثل مقاومة أحمد باي، ومقاومة الأمير عبد القادر، ومقاومة المقراني والحداد، لم يستسلم الجزائريون ولم يسمحوا باحتلال أي شبر من أراضيهم دون أن يبذلوا مقاومة عنيفة. ونتيجة لذلك، شهدت الجزائر بروز

عدة حركات مقاومة، كان المزابيون من بين الفئات التي شاركت ودعمت هذه المقاومات بقدر استطاعتهم، كمقاومة أحمد باي (Mercier، 1903، صفحة 431) ومقاومة الأمير عبد القادر (Yver، 1912، صفحة 87) وأولاد سيدي الشيخ (Lanier، 1884، صفحة 250) ماديا أو معنويا (سعيد، 2006، صفحة 81).

اعتبرت السلطات الفرنسية منطقة وادي مزاب جغرافياً استراتيجية تشكل تهديداً ملموساً يجب التعامل معه بسرعة من خلال احتلالها وضمها إلى التراب الفرنسي. جاء هذا التوجه نتيجة للدور الفاعل الذي لعبته المنطقة في دعم ومساندة حركات المقاومة، فضلاً عن توفيرها للمقاومين ملاذاً آمناً لهم من الملاحقات العسكرية الفرنسية، وهذا وفق ما جاء في المصادر والكتابات الفرنسية (Bernard، 1929، صفحة 418).

تقدمت القوات الفرنسية نحو دواخل البلاد الجزائرية وقضت في زحفها على كل من وقف في وجهها، أو حاول رفض الاعتراف بها بمختلف الأساليب الاستعمارية الانتقامية، كالقتل والنفي والإبادة الجماعية، وصورة ذلك ما حدث لواحة الزعاطشة التي وقفت في وجه القوات الفرنسية، فقام الفرنسيون بإبادتها عن بكرة أبيها (مياسي، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837 – 1934م، 2012، الصفحات 60 - 64) (مياسي، من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، 1999، الصفحات 81 - 82)، كما قضوا بكل وحشية على المقاومين في مدينة الأغواط مستعملين أحدث أساليب الإبادة في ذلك الوقت (بوقرين، 2010، صفحة 74).

وكان لقرب مدينة الأغواط من منطقة وادي ميزاب، ومعرفة ما أسفرت إليها نتائج المقاومات الشعبية في ربوع الجزائر، الأثر البالغ لدى سكان وادي ميزاب عبر تجارهم الناشطين في مختلف جهات الوطن، إضافة إلى تهديد الحاكم العام الماريشال راندون للمزابيين إذا ما فكروا في القيام بأي صدام عسكري مع الفرنسيين فإنه سيقتحم قصور وادي مزاب ويخربها عن آخرها، ويوقف كل النشاطات التجارية للمزابيين بمدن التل، والتي صارت له معروفة (Amat، 1888، الصفحات 20 - 21)، (Robin، 1884، صفحة 36).

وكانت لهذه الأسباب وغيرها الأثر الكبير في التوجه نحو منحى إبرام معاهدة الحماية مع السلطات الفرنسية حفظا من تخريب ودمار منطقة وادي ميزاب، وتوفيت اللحظة التاريخية على الفرنسيين من تطبيق أساليبهم الاستعمارية، ويفسر أحد المؤرخين الأسلوب الذي سلكه الميزابيون مع السلطات الفرنسية في ذلك الوقت قائلا:" وحين تمكنت السلطة الفرنسية من احتلال أغلب المدن الجزائرية في الشمال وكذلك في الجنوب. وبمجرد أن احتلت الأغواط تأكد للميزابيين الخطر

الفرنسي على تجارتهم وعلى مصيرهم، وأنه من المستحيل سياسيا التغلب على الفرنسيين عسكريا بعد أن تمكنوا من القضاء على أكبر المقاومين الجزائريين، فجنحوا للسلم وعقدوا معاهدة مع الجنرال راندون الفرنسي عام 1853م حفظت لهم الاستقلال الداخلي..." (عميراوي، 2004، صفحة 103).

ونتيجة لهذه المعاهدة تباينت المواقف في أوساط المجتمع المزابي حول المنهج أو الأسلوب الذي يجب التعامل به مع هؤلاء الدخلاء الفرنسيين، وقد برز صوت من أولئك الذين أرادوا أن يتخذوا موقفا حاسما مع الفرنسين يدعى الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش.

2. موقف الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش من الاحتلال الفرنسي:

1.2. موقفه من عقد معاهدة الحماية سنة 1853م:

عارض الشيخ انضواء المزابيين تحت مظلة معاهدة الحماية، واحتج على الأعيان الذين أبرموا المعاهدة مع السلطات الفرنسية من اتخاذهم لهذا الموقف، وكان يرى أنه من الضروري رفض أي تفكير يؤدي إلى المهادنة مع الفرنسيين، وأن الموقف الصحيح يكمن في مواجهتهم عسكريًا وعدم الرضوخ لهؤلاء الصليبيين الذين احتلوا الجزائر، وفرضوا عليها أساليب استعمارية شملت القتل والإبادة والتهجير والنفي، وقد عبر ذلك بقوله:" أن تشييع ثمانين جنازة في اليوم من بني يزقن أحب إليّ من أن يطرق سمعي أن فرنسا وضعت قدمها على حجر واحد من تضفت" (عميراوي، 2004، صفحة 105).

2.2 موقفه من الاحتلال الفعلي لمنطقة وادي مزاب سنة 1882م:

قررت السلطات الاستعمارية الفرنسية إنهاء الحماية على منطقة وادي مزاب، واحتلالها فعليا سنة 1882م، وذلك لما رأت أنه يجب إخضاع كل التراب الجزائري لسلطتها الفعلية المباشرة، وإنهاء كل ما يسمى بالحماية أو الحكم الغير المباشر، وقد بررت بوضع المنطقة تحت سلطتها المباشرة بكون أنها قدمت الدعم والمساندة للمقاومات وساندت الثوار، ووفرت لهم الملجأ الآمن والمخبأ من أنظار الفرنسيين، وأن موقع وادي مزاب صار خطيرا لها بعد مقاومة أولاد سيدي الشيخ، وأن المزابيين لم ينفذوا ما جاء في بنود معاهدة الحماية على حد تعبيرهم (Wahl، 1896، صفحة 115). وقد عبروا عن ذلك بصفة رسمية في قرار الإلحاق الصادر من طرف الحاكم العام لويس تيرمان سنة 1882، بقولهم: "... وأضحت قصوركم ملجأ لأنواع الأشرار المتطلبة عليهم محاكمنا وأصبحت أسواقكم مفتحة لجميع المفتتنين بالقبلة بل مددتموهم بأصناف الأدوات الحربية كل ذلك منكم..." (Tirman، 1882).

فجاء أمر احتلال المنطقة من طرف الحاكم العام لويس تيرمان يوم 26 أكتوبر 1882م حيث أمر القائد المتواجد بمدينة المدية الجنرال الأمير ايدوارد دي لاتور دوفيرني لورنجي في برقية باحتلاله المنطقة وإنهاء وضع الحماية، وقد تم ذلك فعلا، وهو ما أثبته أحد الدارسين بقوله:" وعلى الساعة الثامنة من يوم 30 نوفمبر، كان الجنرال دولاتور متبوعا بهيئة أركان جيشه بقيادة الكومندان ديدييه (Didier)، في استعراض بالطبول والجوق العسكري ورفع العلم الفرنسي وبتحيته بإحدى وعشرين ضربة مدفع، تلتها قراءة بيان الحاكم العام للجزائر باللغتين الفرنسية والعربية على التوالي، وكذا القرار الذي أنشئت بموجبه الدائرة العسكرية لغرداية ومرسوم تعيين القائد" (عمر، 2008، صفحة 45).

لم يبقى الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش مكتوف اليدين، بل احتج على الفرنسيين إقدامهم على الاحتلال المباشر للمنطقة، وحاججهم بما تم الاتفاق عليه في معاهدة الحماية، وأدان خرقهم الصارخ لبنود المعاهدة، وهو ما أدى إلى وضعه تحت مجهر الإدارة الفرنسية لتتم مراقبته، وقام قائد القوات الفرنسية بإصدار أمر اعتقاله وإيداعه السجن العسكري إلى حين استكمال إجراءات التوسع والاستقرار نهائيا بغرداية، ثم بعد ذلك أمر بالإفراج عنه. كما تم تسجيل اسمه في الدفتر "**B**" لرصد تحركاته باستمرار، واتخاذ التدابير اللازمة إزاء كل نشاط يُحتمل أن يُفضي إلى تأليب الرأي العام ضد فرنسا. ويذهب إلى تأكيد هذه النقطة صالح بن ادريسو قائلا:" ولقد ناهض الشيخ القطب الاستعمار الفرنسي بكل ما أوتي من جهد رغم تقدمه في السن وكان له كغصة، خاصة بعد إخضاع مزاب سنة 1882، كما تؤكده التقارير الفرنسية" (ادريسو، 2014، صفحة 2).

من أبرز الوثائق التي وصلتنا عن موقف الشيخ أطفيش تؤكد معارضته لاحتلال المنطقة، رسالته التي وجهها إلى السلطات الفرنسية يحتج فيها على قرار الإلحاق، والمعروفة باسم «رسالة الرد على إلحاق وادي مزاب». فقد تساءل الشيخ أطفيش في هذه الرسالة عن الأسباب التي دفعت الفرنسيين إلى نقض معاهدة الحماية، مؤكدا أن المزابيين لم يرتكبوا أي مخالفة لما تم الاتفاق عليه مسبقا، وقد طالب الفرنسيين بالالتزام الصارم بما نصت عليه بنود المعاهدة، مؤكدا لهم في رسالته، قائلا:" فكفوا عن البناء والهلك في بلادنا والدخول في أحكامنا (اطفيش).

واصل الاحتلال الفرنسي ممارساته التعسفية ضد الشعب الجزائري، وكان المزابيون من بين الفئات التي تعرضت لكافة أشكال السياسات الجائرة. وبعد مسيرة طويلة من المقاومات المسلحة، لم يتمكن الجزائريون من تحقيق دحر المستعمر وإجباره على مغادرة البلاد، نظراً لتفوق الجيش الفرنسي من الناحية التقنية والتنظيمية، إضافة إلى تغلغل القوات الفرنسية في عمق الجغرافية

الجزائرية، مما استحال إمكانية القدرة على طرد المحتل أو الانتصار عليه عسكرياً. ونتيجة لذلك، تحوّل الجزائريون إلى تبني شكل آخر من أشكال المقاومة، وهي المقاومة السياسية، التي برز فيها أحد أعلام المزابيين، وكان يجمع ما بين عضويته في حلقة العزابة إلى جانب خوضه غمار الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية، ألا وهو الشيخ إبراهيم بيوض، فكيف كان موقفه من الاحتلال الفرنسي؟

3. موقف الشيخ إبراهيم بيوض من الاحتلال الفرنسي:

لقد خاض الشعب الجزائري نضالا سياسيا مريرا ضد سياسات الإدارة الاستعمارية الفرنسية وقوانينها الجائرة، ومن بين ما فرض على الجزائريين وكان تعسفا في حقهم التجنيد الإجباري للشباب الجزائري، ويصف أحد الكتاب هذا القانون بقوله: "ولكن الموقف تفجر تفجرا دمويا عندما وافق المجلس الوطني الفرنسي على هذا القانون وذلك في فيفري سنة 1912م، عندئذ طم الخطر وبلغ السيل الزبى، ولجأ المسلمون إلى العنف وقد صعرت السلطات عن مطالبهم خدها، فكان الاغتيال والمصادمات مع الشرطة، وتكوين فرق الإرهاب. أما الشباب الذي كان المقصود بالتجنيد الإجباري فقد هرب إلى الجبال واختفى، وبذلك وضع الجزائر على حسب تقرير الفرنسيين في حالة خطر..." (ناصر م.، 2015، صفحة 328).

فمن الذين طالهم التجنيد في تلك الفترة الشيخ إبراهيم بيوض وكغيره من الشاب الجزائري، ولكن الشيخ وجد من قام بحمايته من هذا القانون الجائر، وهو ما يذكره في مذكراته قائلا:"...ثم هجموا هجمتهم الكبرى في عام 1919م، فأخذوا من شباب القرارة عدد كبيرا وكنت ممن أخذوه، ولكن نجاني الله تبارك وتعالى، فسخر لي من بيت حاكم القرارة وهو من أخوالي من طالبه بإنقاذي من الجندية ففعل" (دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، 1980، صفحة 183).

فلم يرضخ لأمر الواقع بل قام بموقف تجاه التجنيد وكتب شكاية شديدة اللهجة إلى الولاية العامة والإدارة العسكرية في الجنوب، يشكو فيها من هذا القانون الجائر، وجمع فيها توقيع ثلاثة وسبعين رجلا، مما أدى بالحاكم العسكري بغرداية باستدعاء هؤلاء الموقّعين في الشكاية ليتباحث معهم حول من كتبها ومن دعا الناس للتوقيع فيها، فلم يجيبوه وتجاهلوا الأمر (دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، 1980، صفحة 184) (بوحجام، 2014، الصفحات 52 - 53).

1.3. مساعيه حول ربط منطقة وادي مزاب بعمالة الجزائر:

من المساعي التي قام بها الشيخ بيوض في نضاله السياسي تجاه الحكومة الفرنسية، مطالبته الحثيثة في ربط منطقة وادي مزاب بعمالة الجزائر، وإنهاء الحكم العسكري بها، فاستغل

وفود لجنة برلمانية فرنسية من باريس إلى وادي مزاب ليقدم لها عريضة مطالب والتي كان من أبرز بنودها إلغاء الحكم العسكري بوادي مزاب.

ولما ترشح للمجلس الجزائري سنة 1948م وصار عضوا ممثلا فيه لبني مزاب طالب عدة مرات في خطاباته بذات المجلس إلغاء الحكم العسكري، وتعويضه بالحكم المدني، وإجراء إصلاحات اقتصادية بالمنطقة، ومما جاء في أحد خطاباته ما نصه: " سيدي الرئيس، سادتي الأعضاء...وأرى من واجبي أن أبدي لكم بعض ملاحظات تتعلق بميزاب الذي أتشرف بتمثيله في المجلس الجزائري لتنير السبل أمامكم وتساعدكم على مهمتكم...فإنه يسرنا جدا أن تقوموا باستفتاء عام صحيح حر لجميع الميزابيين في ميزاب وفي العمالات الثلاث، حيث توجد الآلاف العديدة من تجار ميزاب، ونحن متيقنون أنكم تجدون الأغلبية الكبيرة الساحقة طالبة للارتباط بعمالة الجزائر. ولكن يبدو لنا أن هذا عمل متعب مضيع للوقت، ويستحيل أن يأتينا بنتيجة غير النتائج التي عرفناها وتحققناها من قبل، وقد حصلنا عليها بواسطة استفتاءات مباشرة وغير مباشرة وكلها تحقق رغبة الأغلبية الكبيرة من الميزابيين في الارتباط بعمالة الجزائر وشوقهم الشديد لتطبيق قانون 20 سبتمبر 1947 وعند الإدارة المركزية والسلطة المحلية بالأغواط وملحقة غرداية الجنراليتين..." (ناصر م.، 2017، الصفحات 319 - 320).

كما قام بمراسلة الوزير فيوليت سنة 1952م حول إنهاء الحكم العسكري واستبداله بالحكم المدني، ومن النقاط التي أشير إليها في مراسلته تتمثل فيما يلي:

في أكتوبر سنة 1947، أُجري استفتاء عام كتابي حول قبول النظام الديمقراطي للانتخابات أو رفضه، وأسفر عن نتيجة إيجابية تمثلت في قبول هذا النظام.

قام الشيخ بيوض بتأليف رسالة في عام 1946 دعا فيها إلى تبنّي النظام المدني ووجّه نقدًا للحكم العسكري، وقد تم طبعها وتوزيعها آنذاك، ولاقت استحسانًا واسعًا من قبل الأمة.

شارك الشيخ بيوض في انتخابات المجلس الجزائري في أبريل 1948، وقد قدم برنامجًا يدعو إلى ضم منطقة ميزاب إلى عمالة الجزائر، وتنفيذ ما نصّ عليه الدستور الجزائري بشأن إلغاء نظام التراب الجنوبي. وقد حقق الشيخ فوزًا كبيرًا في الدورة الأولى، رغم معارضة السلطة العسكرية الفرنسية بمنطقة وادي مزاب.

في 8 فبراير 1950، ألقى خطابًا مطولًا ومهمًا على منبر المجلس الجزائري، عرض فيه أوضاع منطقة ميزاب، وطالب بضمّها إلى عمالة الجزائر وفقًا لما نصّ عليه مشروع الحكومة والدستور. وقد حاز هذا الطلب على إجماع أعضاء المجلس، وصُودق عليه. وكان المجتمع المزابي في ذلك الوقت على درجة عالية من الوعي والانتباه، يتابع باهتمام مجريات النقاش داخل المجلس،

ويعرف تمامًا ما يُدار بشأن قضيته في مختلف المجالس المحلية. (ناصر م.، 2017، الصفحات 326 - 327).

2.3. موقفه من الاستعمار الفرنسي في المجال الثقافي والعلمي:

قامت السلطات الفرنسية في الجزائر وفي إطار تجسيد الهيمنة الاستعمارية وهيكلة البنية القاعدية لها بفرض التعليم الفرنسي على أبناء الجزائريين، وتحضيرهم نفسيا وفكريا لمشروع الجزائر الفرنسية، وإيهامهم بأن الجزائر لم تكن لتوجد إلا فرنسية في حاضرها ومستقبلها، وأمام هذه القوانين المجحفة والممارسات التي شكّلت تهديدًا خطيرًا لشبكة العلاقات الاجتماعية في المجتمع الجزائري، سعى نخبة من العلماء والمشايخ والخيّرين الجزائريين إلى إنشاء العديد من المدارس، لتربية النشأ وتكوين الأجيال وتلقينهم مبادئ الدين واللغة العربية، وترسيخ مفهوم الوطنية الجزائرية، ومحاربة البدع والخرفات التي بثها المستعمر في أوساط المجتمع الجزائري.

ومن العلماء الذين تجندوا في هذا الميدان الشيخ إبراهيم بيوض الذي أنشأ وساهم في إنشاء العديد من المدارس الحرة في العديد من ربوع الوطن، وحول هذه النقطة يؤكد أحد الدارسين بأن الشيخ قد أسّس بمعية مساعديه، عددًا من المدارس في أبرز مدن الجزائر، من بينها توقرت، بسكرة، باتنة، الجزائر العاصمة، البليدة، تيارت، وغليزان. ولم تقتصر هذه المدارس على أبناء المنطقة المقيمين في تلك المدن، بل فُتحت أبوابها لكل الجزائريين الراغبين في التعلم. كما كانت تربطها علاقات تعاون وتبادل مع مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (لعساكر، 2000).

كما قام بتأسيس معهد الحياة برفقة أعلام ومشايخ من مدينة القرارة (الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1998، صفحة 290)، وبحسب ما أورده محمد علي دبوز، فإن معهد الحياة العريق قد تأسس يوم الجمعة 28 شوال 1343هـ الموافق لـ21 ماي 1925م، وسرعان ما ازدهر واشتهر، ليصبح وجهةً علمية مرموقة تستقطب البعثات الطلابية من مدن ميزاب ومناطق أخرى. وقد لعب هذا المعهد دورًا بارزًا في تخريج أجيال من الطلبة الصالحين، المثقفين والمصلحين، الذين أسهموا في مسيرة الإصلاح، وكانوا من رواد النهضة، كما شارك كثير منهم في صفوف الثورة التحريرية، جندًا للحرية والاستقلال (دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، 1980، صفحة 195). لم يكن معهد الحياة يُعرف بهذا الاسم عند تأسيسه، بل كان يُسمّى معهد الشباب، قبل أن يتحوّل اسمه سنة 1954م إلى معهد الحياة (قرقب، 1996، صفحة 63).

كما أرسل الشيخ بيوض العديد من البعثات العلمية إلى تونس وغيرها من المراكز العلمية خارج الجزائر، بهدف تحصيل العلوم العربية والإسلامية والارتقاء بالمستوى العلمي، والذي حرم منه الكثير من الطلبة والتلاميذ في الجزائر خلال تلك الفترة (شترة، 2009، صفحة 924)،

وكان من بين الطلبة الذين وفدوا إلى تونس محمد بن بابا الشيخ بالحاج، ومحمد علي دبوز، ومحمد بن الحاج الراعي، وبكير بن محمد أرشوم، ومحمد بن إبراهيم كعباش، وصالح الخرفي، وصالح خباشة وصالح باجو، وغيرهم (دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، 1980، صفحة 274).

3.3. موقف الشيخ بيوض من الاحتلال الفرنسي خلال فترة الثورة التحريرية 1954 – 1962م:

لم يتوان الشيخ بيوض عن مساندة الثورة التحريرية ودعمها، مسخّرًا كل الإمكانيات المادية والمعنوية لذلك، وكان صوت المزابيين في الثورة، وفي هذا الصدد يشير أحد الدارسين إلى بدايات اتصال ممثل جبهة التحرير الوطني المدعو رباح لخضر بالشيخ إبراهيم بيوض، في قيام سي فريد وهو الإسم الثوري لرباح لخضر حملته بلقاء الزعيم الروحي للطائفة الميزابية، الشيخ بيوض، الذي تمكّن من الوصول إليه عبر المناضل الحاج أيوب. وكان الشيخ بيوض آنذاك لا يزال متأثرًا بشدة من العمليات الاستفزازية المشينة التي نفذتها عناصر مصالية بتحريض من أجهزة المخابرات الاستعمارية، كما تأثر بالدعاية التي كانت تروّج لها أبواق العدو، الأمر الذي دفعه إلى الاحتجاج أمام سي فريد على ممارسات الجبهة، وهو ما اعتبره تجاوزات بحق الإخوة المزابيين (عباس، رواد الوطنية، 2005، صفحة 213). فردّ سي فريد بأن الهجمات الموجهة ضد المزابيين، سواء عبر الدعاية أو استهداف تجارتهم، كانت في حقيقة الأمر مناورة فرنسية تهدف إلى تحييدهم عن دعم جبهة التحرير، والاستفادة من مواردهم، ومنعهم من تقديم الدعم المادي للثورة (عباس، رواد الوطنية، 2005، صفحة 213).

كما أكد بن يوسف بن خدة على تواصل الجبهة مع الشيخ بيوض قائلا:"...وباسم الجبهة، خاطبنا الشيخ بيوض وطلبنا منه المضاعفة والمزيد من مشاركة إخواننا الميزابيين في العمل ضمن جبهة التحرير الوطني، خاصة في ميادين التجنيد ومراكز الإيواء والاتصال والمواصلات والبريد، وهلم جرا...وطلبنا منه ذلك بالخصوص في الجزائر العاصمة..." (خدة، 2004، صفحة 280).

وبعد هذا اللقاء وغيره من اللقاءات والاتصالات قام الشيخ بيوض بتسخير كل الإمكانيات لمساندة الثورة، وإعطاء الضوء الأخضر لمسؤولي الجبهة بتلقي الدعم والمساندة المطلوبة من التجار المزابيين، وحرض هؤلاء الأخيرين لتقديم الدعم والمساندة للثورة (عباس، مع المناضل لخضر رباح، 1987، صفحة 12).

4.3. موقفه من قضية فصل الصحراء:

تعد قضية فصل الصحراء من أبرز وأخطر المشاريع السياسية والاقتصادية والعسكرية التي راهنت عليها فرنسا الاستعمارية قبل الاستقلال، حيث أدركت أنه من بين الاستراتيجيات التي

يجب أن تقوم بها لتثبّت وجودها بالجزائر، وتستغل الإمكانيات الطبيعة والطاقوية والعسكرية التي تزخر بها الصحراء الجزائرية، الاشتغال على مشروع فصل الصحراء عن الجزائر (1954، 2009، صفحة 21).

ولوجود منطقة وادي مزاب في تموقع استراتيجي ضمن الإطار الجغرافي للصحراء الجزائرية سعت فرنسا إلى استمالة سكانها وأعيانهم، وممن حاولت استمالته بكل الطرق الشيخ إبراهيم بيوض، لأنها أدركت أن منطقة وادي مزاب تعد مفتاحا حقيقيا لنجاح مشروع الفصل، وعلى هذا الأساس أجرت الحكومة الفرنسية سلسلة من الاتصالات مع الشيخ بيوض وحاولت استمالته لقبول المشروع، غير أنّ موقفه ظلّ رافضًا وبإصرار لأي خطوة تُوَجَّه نحو هذا المسار. (العلا، 2018، صفحة 25)، وقد قام هو في المقابل بمجهودات حثيثة لتوقيف هذا المشروع، وتقديم المساندة الكاملة لجبهة التحرير في تصديها لأي تحرك فرنسي في هذا المسعى، وهو ما يؤكده الشيخ قائلا:"...اكتريت سيارة من القرارة هي سيارة الأخ الحاج صالح الخياط وذهبت إلى ورقلة ثم إلى دار القائد (العيد) الذي أثق بوطنيته فوصلت الدار الثانية بعد الزوال، فقيل لي إنه نائم فقلت أيقظوه فالأمر مستعجل، فقام إليّ فحدثته عن خطورة الوضع في قضية فصل الصحراء فعاهدني على أنه معي وبجانبي ضد الفصل، وقال قل ما شئت واكتب ما شئت فإني أمضيه بدون تردد، وأخبرته أني ذاهب إلى الشيخ أحمد التيجاني حالا لنفس الغرض فلويت عنان السيارة من ورقلة إلى زاوية تماسين فكلمت الشيخ حفظه الله، فأجاب بما أجاب به القائد العيد وتعاهدنا ثلاثتنا على التصلب في موقفنا ولو كلفنا حياتنا، وعلى إفساد مناورات الانفصاليين..." (بيوض، 1990، صفحة 34).

لقد رسّخت هذه المواقف مكانة الشيخ كرمز للوطنية ومقاومة الاستعمار، مؤكدة دوره في مسار نضالي طويل امتدّ عبر مراحل مختلفة من تاريخ الجزائر المعاصر.

خاتمة:

في ختام هذه الدراسة يمكن تحصيل أبرز النتائج في النقاط الآتية:

لقد وجد من العزابة من قارع الاستعمار وناضله بما أوتي من قوة، وسجل حضوره في ميدان النضال، كالشيخ امحمد بن يوسف اطفيش والشيخ إبراهيم بيوض، فتركوا بذلك بصماتهم في سجل تاريخ الحركة الوطنية والثورة.

أدرك العزابة مدى خطر الاستعمار الفرنسي على المجتمع، فبينت موقفها منه عبر أحد أعضائها وهو الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش، والذي احتج وبشدة على قبول معاهدة الحماية، واحتج كذلك على قيام الفرنسيين بالاحتلال العسكري المباشر لمنطقة وادي مزاب، وهذا ما نقلته لنا المصادر، وحفظته النصوص المدونة من تلك الفترة.

يُعدّ الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العالم والعزابي البارز الذي واجه الاستعمار، وقد أدرك الفرنسيون مدى نفوذه وتأثيره في المجتمع، فتم وضعه تحت المراقبة المستمرة لمتابعة تحركاته.

لما توفي الشيخ اطفيش واصل تلميذه الشيخ إبراهيم بيوض مقارعة الاستعمار، وكان هو الآخر عضوا في حلقة العزابة، مطبقا أساليب النضال المعروفة آنذاك والتي اندرجت فيما يسمى بالمقاومة السياسية، فوضعته الإدارة الفرنسية هو الآخر تحت مراقبتها باستمرار، وكانت ترصد تحركاته أين حل وارتحل.

لما اندلعت الثورة التحريرية لم يتأخر الشيخ بيوض في مساندتها وتقديم الدعم لها، فكان بذلك صوت الثورة لدى المزابيين، وقد أثبتت مواقفه ومساعيه خلال الثورة مساندته الكاملة للقضية الجزائرية.

وختاما فإننا نؤكد ما أورده أبو القاسم سعد الله في كتابه حول موقف العزابة من الاستعمار الفرنسي قائلا:" وأما ميزاب فقد كانت السلطة فيها للعزابة وكانت تفضل الحياد ولكنها في كثير من الأحيان كانت تجد نفسها في أتون الثورة" (الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1830 – 1900م، 1992، صفحة 358).

قائمة المراجع

Augustin Bernard .(1929) .*Histoire des Colonies Fravcaises et de L'Expansion de la France Dans le Monde (L'Algérie* .(المجلد 2) *(* Paris: Libraire Plon.

Charles Amat .(1888) .*Le M'Zab et les M'zabites* .Paris: Librairie Algérienne et coloniale.

Commandant Robin .(1884) .*Le Mzab et Son Annexion a La France* . Alger: Imprimeur Libraire de L'Académie.

Ernest Mercier .(1903) .*Histoire De Constantine* .Alger: Imbrimeur-Editeurs.

Georges Yver .(1912) .*Correspondence Capitaine Daumas consul a Mascara (1837 .(1839* – Alger: Imbrimeur - Libraire de L'université.

L. Lanier .(1884) .*L'Afrique choix de lectures de géographie Accompagnées de Résumés; D'analyses de notes Explicatives et Bibliographiques* .Paris: librairie classique Eugène Belin.

Maurice Wahl .(1896) .*La France aux colonies* .Paris: Libraire Imprimeur Réunies.

إبراهيم بيوض. (1990). *أعمالي في الثورة* (الإصدار ط1). الجزائر: جمعية التراث.

إبراهيم مياسي. (1999). *من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر* (الإصدار 1). الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

إبراهيم مياسي. (2012). *الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837 – 1934م.* (1، المحرر) الجزائر: دار هومه.

أبو القاسم سعد الله. (1992). *الحركة الوطنية الجزائرية 1830 – 1900م* (الإصدار ط1). لبنان: دار الغرب الإسلامي.

أبو القاسم سعد الله. (1998). *تاريخ الجزائر الثقافي* (الإصدار 1، المجلد 5). لبنان: دار الغرب الإسلامي.

احميده عميراوي. (2004). *موضوعات من تاريخ الجزائر السياسي* (الإصدار 1). الجزائر: دار الهدى.

الحاج موسى بن عمر. (2008). القضايا الوطنية والعربية الإسلامية من منظور أعلام مزاب 1902 – 1962م. *أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر*، 45. جامعة الجزائر 2.

المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954. (2009). فصل الصحراء في السياسة الاستعمارية الفرنسية . *دراسات وبحوث الملتقى الوطني الأول حول فصل الصحراء عن الجزائر* (صفحة 21). الجزائر: دار القصبة للنشر.

امحمد بن يوسف اطفيش. (بلا تاريخ). رد على نقض فرنسا لمعاهدة 1853م. *(رقم: 12)*، و 1. مخطوط موجود بمكتبة محمد الحاج سعيد.

لويس تيرمان. (قرار إلحاق وادي مزاب من طرف الحاكم العام لويس تيرمان). وثيقة بمكتبة الأستاذ عبد الرحمن حواش.

بن يوسف بن خدة. (2004). *شهادات ومواقف* (الإصدار 1). الجزائر: دار النعمان للطباعة والنشر.

خير الدين شترة. (2009). *الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة 1900 – 1956م* (الإصدار ط. خ، المجلد 2). الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع.

سيمون بفايفر. (2009). *مذكرات جزائرية عشية الاحتلال*. (أبو العيد دودو، المترجمون) الجزائر، الجزائر: دار هومه.

صالح بن ادريسو. (2014). *مزاب عنوان حضارة*. فرنسا: الرستمية.

عيسى بوقرين. (2010). انتفاضة ابن ناصر بن شهرة 1851 – 1875. *مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر*، 74. الجزائر: جامعة الجزائر 2.

عيسى قرقب. (1996). الإمام إبراهيم بيوض رائد الحركة الإصلاحية في الجنوب الجزائري (1316 – 1401هـ/1899 – 1981م). *أطروحة دكتوراه*، 63. الجزائر: أطروحة دكتوراه.

محمد بن قاسم ناصر بوحجام. (2014). *الشيخ إبراهيم بيوض الوطني المحافظ المجدد* (الإصدار 1). الجزائر: جمعية التراث.

محمد سليمان أبو العلا. (2018). *موقف الشيخ بيوض والميزابيين من مؤامرة فصل الصحراء* (الإصدار 1). الجزائر: جمعية التراث.

محمد صالح ناصر. (2017). *الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض مصلحا وزعيما* (الإصدار 4). الجزائر: دار ناصر للنشر والتوزيع.

محمد عباس. (18 05, 1987). مع المناضل لخضر رباح. *جريدة الشعب*، 12.

محمد عباس. (2005). *رواد الوطنية* (الإصدار ط2). الجزائر: دار هومه.

محمد علي دبوز. (1980). *أعلام الإصلاح في الجزائر* (الإصدار 1، المجلد 2). الجزائر: دار البعث للباعة والنشر.

محمد علي دبوز. (1980). *أعلام الإصلاح في الجزائر* (الإصدار 1، المجلد 3). الجزائر: دار البعث للطباعة والنشر.

محمد لعساكر. (2000). جهاد الإمام الشيخ بيوض بين الإنصاف والإجحاف. *ملتقى الأول لفكر الإمام الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض، 13 – 14 أفريل 2000م* (صفحة 56). الجزائر: نشر جمعية التراث والحياة.

محمد ناصر. (2015). *المقالة الصحفية الجزائرية* (الإصدار ط. خ، المجلد 1). الجزائر: عالم المعرفة.

يوسف الحاج سعيد. (2006). *تاريخ بني مزاب، دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية* (الإصدار 2). الجزائر: المطبعة العربية.